

أحبه ... ولكن

ذهبت مجبرة من والديها لرؤيته ، لم تكن تحب يوما دخول المشفى أو حتى التفكير فيه، كانت تشم رائحة غريبة لمجرد اقترابها منه تستفز أعصابها ... ولكن هذه المرة أقسى و أصعب ، فابن عمها و صديق طفولتها يرقد هنا ، بوجهه الشاحب و جسمه النحيف الذي يأكله المرض يوما بعد يوم . منذ كانا طفلين و هي تخصه بكل أسرارها، تبثه حزنها و همومها، وهو الذي لا يكبرها سوى بيومين، اعتاد أن يشعرها بأنها طفلته هو ... فيحتضنها أحيانا و يوبخها أخرى ، ويعطيها دروسا في الحياة التي سبقها إليها كون " أكبر منك بيوم أعرف منك بسنة" . كانت تسترجع تلك اللحظات في طريقها لغرفته فتغازل شفتيها ابتسامة حزن تحارب لكي تخفيه ...

نظرت إليه من وراء الزجاج، أنهكه المرض ولكنه لم ينل من وسامة وجهه، التقت عيناها، ابتسم لها تلك الابتسامة التي لطالما أراحتها ، أشار لها لكي تقترب ... و رغم خوفها من كل تلك الأنابيب التي تلفه مشيت إليه ، قاومت رغبة اجتاحتها لحضنه و البكاء على صدره لكنها اكتفت باحتضان يده بين أصابعها قائلة " كيف أصبح أخي الكبير؟" ... ابتسم لها " كما ترين ... في تحسنٍ دائم، كيف هي طفلاتي؟؟ " ، وللحظة نسيت أنها في غرفة يلفها البياض و رائحة التعقيم ، و تخيلت أنهم في منزل جدّها القديم، تجلس على الأرجوحة تحت شجرة البلوط ، بينما يستند هو إلى جذع الشجرة ليحدثها عن آخر مغامراته، وعن المعجبة السرية التي تبعث له برسائل حب طفولية يجدها في حقيبته بين الحين والآخر، وتخبره هي عن فارس أحلامها الذي تتخيله سيأتي لها يوما على حصان أبيض ليطير بها بعيدا، كان يمازحها أحيانا فيسألها "ألا أصلح أن أكون أنا فارسك الجميل" فتجيبه "بل تصلح لكي تقود عربتنا"...

والآن، على الرغم من أنها وجدت فارس أحلامها ذاك، إلا أن مرضه يمنعها من الفرح، فكيف تفرح وروحها الأخرى تتنازع للبقاء، كيف لها أن تضحك وعيناها تبكي كلما ذكرته ... لذلك حاولت أن تبقى بعيدة عنه طوال فترة مكوثه بالمشفى، لأنها أضعف من أن تحتل كمية الحزن الذي يعترينا حين تراه ممددا دون حياة هناك، لا تطيق النظر إليه هكذا وقد اعتادته يشعل حياتها بالأمل والحياة.. لكنها الآن هنا، ومن الأفضل أن تعامله كما كانت دوما ، صديقها ومأمن سرها، ولذلك قررت أن تخبره اليوم لعله يشاركها السعادة وينسيه الحب الذي تشعر به ذاك الألم الذي يصارعه. اقتربت منه كما اعتادت حين كانت تريد أن تخبره سرا من أسرارها ، وشوشت له " لقد وجدته!"، وأتبعته بابتسامة خجلة ... نظر إليها باستغراب، أكملت " نحن بانتظار خروجك لنعلن خطبتنا" .. للحظة تبدلت المشاعر على وجهه، وتجمعت علامات استفهام كبيرة هو نفسه لم يفهمها، أراد أن يعرف كل التفاصيل، لكن الأحرف تصادمت بين شفتيها لتخرج كلمات غير مفهومة... نظرت إليه بخوف "هل أنت بخير؟؟" ، أو ما لها برأسه "بحاجة للراحة فقط...!!!"

بعد رحيلها، استرجع كل ما حصل، بريق السعادة في عينيه حين رآها، تلك الراحة التي شعرها حين لامست أصابعها يده، الذكريات الكثيرة التي جمعتها.. شوقه لرؤيتها الان وكل لحظة، وإحساسه بألم يفوق ألم المرض حين صارحته بخبر خطبتها الوشيكة... ينظر لما حوله، الشراشف البيضاء والسوائل المعلقة بجسمه، أصوات أنين تأتيه بين وقت وآخر لمريض مثله أوشك مسكنه على الانتهاء، وممرضة رغم كل ما تحاول رسمه على وجهها من تفاؤل، إلا أنه يراها كرسول موت إليه... منذ علم بأن مرضه لا شفاء منه، وهو

بانتظار حصول معجزة، كان يعلم أن كل أحلامه لا بد وسوف تتحقق، وكل ما يمر به الآن ما هو إلا محطة عبور لكي يُقدّر ما كان وما سيكون... وحين أتت إليه اليوم، وطغت رائحة عطرها على رائحة الغرفة الكنيبة، حين أمسكت بيده قبل لحظات... علم أنها هي تلك المعجزة...

لم يتوان أن يخبر الجميع بذلك، أمه التي كانت تنتظر تلك المعجزة أكثر منه، والده الذي ليس له سواه من الأبناء، كل العائلة عرفت أنها ستكون دواءه، وإن لم تكن له فسيزيد ألمه، ويقترب يومه... أما هي، فرغم صدمتها لما سمعته، وقلبها الذي تعلق بشخص آخر. فقد اقتنعت بما حدثته بها عيناه، وتفاءلت أكثر منه بعودته، وآثرت حياته على حبها، فقدمت نفسها قرباناً لعلاج... وما أن أخبرته برأيها، حتى رأت الدم يعود لوجهه المصفر، و بريق يشتد في عينيه، فأغمضت عينيها على صدره وفي محاولة لتعويد قلبها على حب من نوع آخر...

مرت الأيام و قد عاد إلى بيته، رفض كل أنواع العلاج سوى وجودها قربها، فكانت رؤيتها كل صباح ومساء هي جرعات دوائه. و يوماً بعد يوم تحسنت صحته، ورجع لعاداته اليومية، كما عاد لمكتبه و عمله بسرعة فاجأت الجميع، فكان يبتسم ويقول حين يسألونه " عثرت على ما لا يملكه الأطباء"... و عدا نوبات الألم التي كانت تنتابه بين الحين والآخر فيكتمها عن الجميع، بدا أن حياته تمشي كما يريد، بل و تعطيه أكثر مما تمنى... ولما رآها دائماً بقربه، و بدأت تتعايش مع هيامه بها، حددوا اليوم الذي ستزف إليه فيه، وسيصبح الحلم حقيقة...

لبس البدلة السوداء التي اختارتها له، و وضع وردة بيضاء في جيبه جاكيتته تتماشى مع الوردة التي تزين شعرها المبعثر... نظر إليها بسعادة بالغة، و نظرت إليه بعينين دامعتين تظاهرت بأنها دموع الفرح، فلم تتخيله أبداً الرجل الذي ستكون بقربه في هكذا يوم، كانت تحن لفارسها الحقيقي، لكنها تُصبر نفسها، فقد فعلت ما أملاه عليها إخلاص قلبها لصديق أحبها دوماً و إن اختلف نوع الحب... فُتح الباب، لتتشابك أيديهما و يدخل مع علو صوت الموسيقى الكلاسيكية، بدأت تحس بثقل في قدميها، نبضات قلبها تتسارع، تحاول أن تمضي بثبات لكي لا يلاحظها أحد، لكنها تسقط... تنظر مذهولة، يتجمع الجميع من حولهم، تسمع صرخات، فتتأمل إليه، يبدو كملاك جميل، شفته ما زالت تحتفظ بنفس الابتسامة التي دخل بها، يحادثها بعينيه للمرة الأخيرة " كنت دوماً أميرتي"... تبكيه، تبكيه بشدة... ينظر الكل إليها نظرات حزن وشفقة... لا أحد يعلم أنها تبكي صديق عمرها وأخاها، تبكي فارساً لم يكن يوماً لها، لم تكن يوماً له...

ها هي اليوم... تلبس فستانها الأبيض للمرة الثانية، هذه المرة لتزف لفارسها الحقيقي، دمعت عيناها بحزن... تخيلته اليوم، تخيلته يأتي ليزفها إليه... ليت يأتي...